عدا عن ذلك، فإن الكثير من الصور لا يستحق دراسة جدية، ولكن يعتمد الأمر على من التقط الصور وعلى الغرض الذي التقطت من أجله. فقد كان بين الأوروبيين الذين كانوا يلتقطون صوراً في فلسطين في أوائل القرن العشرين عدد ممن تخطت معرفتهم بالمجتمع الفلسطيني المعرفة السطحية، وممن لم يكونوا يشعرون بالحاجة الى مداعبة الأفكار والقوالب النمطية السائدة في الغرب.

وكان من أبرز هؤلاء الأنتروبولوجية الفنلندية هلما غرانكفيست (Helma Granqvist). وقد جاءت غرانكفيست الى فلسطين، أول مرة، عام ١٩٢٥ بغرض متابعة دراسة عن نساء العهد القديم. ولكنها قابلت، أثناء ذلك، امرأة تدعى لويز بالدينسبيرغر (Louise Baldensperger) كانت قد صرفت معظم حياتها في قرية أرطاس الواقعة الى الجنوب من القدس. وزودها ذلك بمدخل الى حياة القرية أثارها الى درجة حملتها على قضاء السنوات الخمس اللاحقة في دراسة ميدانية في القرية. وخلال السنوات العشرين اللاحقة، وكانت غرانكفيست قد عادت الى القرية لفترة وجيزة في الخمسينات، نشرت نتائج ملاحظاتها في خمسة مجلدات تغطي النواحي المختلفة من حياة القرية: الولادة والطفولة والزواج والوفاة.

وليس هناك سوى عدد قليل من الدراسات الأنتروبولوجية المفصلة عن قرى فلسطينية. وبالتأكيد، فان أي دراسة من هذه الدراسات لا تورد ثروة من التفاصيل عن حياة القرويين ومواقفهم وتوجهاتهم كتلك الثروة التي زودتنا بها غرانكفيست. والأهم من ذلك يعود الى أن اتصالاتها الرئيسية كانت، بطبيعة الحال، مع نساء القرية، ولذا فان رواياتها التي كثيراً ما تكون نقلاً عن أحاديث أجرتها معهن، تركز على وجهة نظر المرأة وعلى مشاغلها واهتماماتها.

كذلك قصرت غرانكفيست (اذ نقلت اهتمامها من نساء العهد القديم الى النساء المعاصرات لها، اللواتي وجدتهن أكثر تشويقاً بكثير) المقارنات التوراتية على بضعة تعليقات ومقتطفات، فكان تركيز أعمالها على الوضع المعاصر. اضافة الى ذلك، فإن الصور التي التقطتها، خلال اقامتها في أرطاس، والتي تبلغ نحو ألف بمجموعها، لم تستخدم منها سوى القليل في كتبها، وهي تتميز بمباشرة غير معتادة أبداً في صور ذلك الزمان.

وقد استطاعت كارين سيفر، وهي أيضاً على معرفة وثيقة بالمنطقة، أن تجمع هذه الصور في كتاب على هيئة مقالة مصورة، وذلك أمر أرادت غرانكفيست أن تفعله على الدوام ولكنها لم تنهه. والموضوع مقسم حسب تقسيمات أبحاث غرانكفيست ذاتها. فالفصل الأول يعالج الاطار الاجتماعي للقرية وبعض تاريخها ويضم صوراً لبعض سكانها وكذلك لبعض زوارها من التجار والحرفيين والسمكريين المتجولين، وأولئك الذين على علاقات وثيقة بالقرية مثل قبيلة التعامرة شبه المستقرة التي كان أفرادها قد تزاوجوا مع أهل قرية أرطاس. ويتبع ذلك فصول مكرسة للولادة والطفولة والخطوبة والزواج والأعياد والوفاة. واضافة الى ذلك تضيف سيفر بعض المواد المقارنة التي جمعتها من زياراتها لأرطاس أخيراً، وكذلك بعض الخلفية عن الحياة الاقتصادية للقرية في العشرينات ومنذ ذلك الحين، وذلك شيء لم تعالجه غرانكفيست بمنهجية الّا بالعلاقة مع الاقتصاد المنزلي وعمل النساء.

ولم تكن غرانكفيست، من وجهة تقنية، مصورة جيدة. ولا يبدي غير عدد قليل من الصور، البالغ عددها في الكتاب ٢٢٦ صورة، أي نوع من البراعة الفنية. ويتضافر هذا مع سوء نوعية الورق الذي استخدم لطباعة الكتاب، مما يؤدي الى افتقار بعض الصفحات الى الوضوح البصري والتركيز. ولكن ارتباط غرانكفيست بالقرية يؤثر على منظور الكاميرا بشكل ملفت للنظر. ولا شك في أن سائحاً أو مصوراً محترفاً يبحث عن مواضيع لبطاقة بريدية كان سيخرج بصور مختلفة تماماً، وربما نمطية، للمواضيع ذاتها. أما بالنسبة لغرانكفيست فقد كان هؤلاء الناس أفراداً وجزءاً من وحدة اجتماعية، وليسوا أنماطاً على خلفية منظر. وهكذا مهما كان الموضوع فهو جزء من حياة القرية وليس صورة اختيرت عبثاً. ويعطي هذا، حتى للصور ذات النوعية الضعيفة، قوة ومباشرة تفتقر اليهما أعمال الكثيرين من مصوري المنطقة.

اضافة الى ذلك، فان الصور وبخاصة من حيث ترتيبها المنسق المتماسك في الكتاب، تعطي المرء شعوراً بنشاط مستمر على عكس بعض الصور الأخرى التي تجعل المرء يشعر أن